على الجارم بك

بمناسبة ذكراه الاولى

للاستاذ عبد الجواد سليمان

من دلائل رقي الأمم ونهوضها أن تذكر أبناءها الراحلين الذين تركوا أثراً حسناً فيها ، وأسهموا في بناء نهضتها ، ذلكم لأن في هذه الذكرى وفاء ، والوفاء خلق ضروري للأمم الناهضة. وكثيراً ماتتوفر الأمم أسباب الرقي ومقومات النهوض ولكنها تفتقر إلى الأخلاق ؛ فلا بحالفها من أجل هذا النجاح في مراحل نموها وتطورها ، ولذلك لم يكن أمير الشعراء مبالغاً عندما شاد بالأخلاق قائلا :

فانما الأمم الأخلاق مابقيت فان هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وعلي الجارم كان من رجالات مصر العاملين الذين خدموا وطنهم وخلفوا وراءهم آثاراً ناطقة بما لهم من فضل يستحقون من أجله الذكرى والخلود .

لم يكن « الجارم » شاعراً فحسب أو كاتباً فقط ، أو عالماً ليس غير أو . . أو . . بل كان كل أولئك وأكثر .

عمل « الجارم » أستاذاً في دار العلوم ، فأشرف على إعداد جيل من أساتذة اللغة العربية كان يحاول في دراسته أن يطبعهم بطابعه ؛ ويحبب إليهم دراسة لغتهم ويدربهم على الغوص في خضمها لاقتناص شواردها ، ويعودهم كيف يكون البحث اللغوي في حاجة إلى صبر وأناة واستعداد قد لايتوفر للكثير من طالبي العلم ورواد الثقافة ثم عمل ... رحمه الله — في ميدان التفتيش عن الأساتذة في المدارس على اختلاف مراحلها ، فكان في ذلك طرازاً فريداً ، هيهات أن يوجد له نظير بين من تعاطوا هذه المهنة ممن أتوا بعده ، فلم يكن في تفتيشه مفتشاً فقط يكتفي بالمرور على المدارس لتسجيل الزيارة وكتابة التقارير ، كما يفعل غيره ممن يؤدون هذه المهمة كعمل رسمي آلي نيط بهم متجاهلين أو ناسين الغرض الأول من هذا العمل ، بل كان مفتشاً يرشد الضال ويأخذ بيد الخامل ويشجع العامل ، وينفخ من روحه في الضعيف ليتنفس ويقوى ، ويتلمس في لباقة وهدوء الفذ الممتاز بين الثلات حتى يهتدي إليه ليثيبه وينبه إليه ليأخذ مكانه الذي هيأه له عمله وجده واستعداده . وكان أستاذاً يعلم الجاهل ويهدي المخطئ إلى الصواب ويوجه التوجيه الحر القويم ، يفعل ذلك عن يقين بصواب طريقته وتمكن من مادته ، وثقة بنفسه ، واعتزاز بعلم أشعل في تحصيله فحمة الدياجي . فلم يكن غريباً في زمانه — أن يحسب له المدرسون حساباً وألف حساب فيتنافسوا في الاطلاع لاحياء مادتهم ومراجعة مسائل العلم لتجديد معلوماتهم علماً منهم أن التقصير لن يخفى على « الجارم » وأن العمل لن يروقه أو يجازى عليه بالثناء إلا إذا أدى باخلاص ويقظة وأمانة وإتقان

ولم يكن غريباً — في زمانه — على المدارس أن تعد العدة لاستقبال الجارم ، لأنه لن يجامل في الحق ولا يخشى فيه لومة لائم . ولن أكون مبالغاً إن قلت إن هذا الجو قد اختفى اليوم من المدارس أو كاد يختفي إذ غدت طائفة المفتشين كطوائف المعلمين في المادة والكفاية فليس في المفتشين إلا في القليل النادر تميز واضح عن المدرسين ، فلذلك تراهم أهملوا الجوهر واكتفوا بالقشور وشغلوا عن اللباب وقطعوا الوقت في توافه الأمور وأصبحت مهمتهم محصورة في المحاسبة على الهمزة والمؤاخذة على النقطة ، واتخذوا الدرس وأرقام صفحاته هدفاً يصوبون إليها سهام مناقشتهم ومحاسبتهم ، أما الموضوع وأما العلم ، وأما الأسلوب وأما النقد الأدبي ؛ وأما الطريقة فقل على ذلك كله العفاء .

ومن هنا استهان المدرسون بالمفتشين عنهم ، وتغيرت العلاقة بين الفئتين فأصبحت قائمة على « الجاسوسية » من جانب المفتش يتلمس الخطأ ويتمناه ويتجسس الهفوات ويسعى إليها ؛ « والتقرير » من جانب المدرسين يعنون بالكم دون الكيف ، ويعملون للتقرير لا للفائدة العلمية والانتاج ، وسلكوا إلى هذا التقرير أقرب الطرق ولو جانب مكارم الأخلاق ، واستوى في نظر (المفتش) العامل والخامل والعالم والجاهل .

وعمل « الجارم » في ميدان التأليف العلمي والأدبي ، فألف في « علم النفس » كتابا مدرسيا كان بمثابة نواة أو بذرة أولى نمت وترعرعت فأثمرت مؤلفات في هذا العلم سلك أصحابها أو الكثير منهم مسلك الجارم في مؤلفه فجاءت وافية في مادتها قريبة المنال في تحصيلها معبدة في طرائقها .

وألف فى علوم اللغة كتباً أشهرها (كتب النحو الواضح والبلاغة الواضحة) فكانت بحق فتحاً جديداً فى آفاق النحو والصرف والبلاغة ، وقد انتشرت هـــذه الكتب فى الشرق العربى انتشاراً ضمن لها البقاء ، وكفل لصاحبها الخلود ، إذ ألف الجارم بين أمثلتها بأسلوب الأستاذ الأديب والعالم المحقق ، فجاءت غاية فى الوضوح وآية فى الدقة ، وسهلت على تلاميذ المدارس تفهم هذه النظريات الجافة من النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع ، وستبقى هذه الكتب متخذة مكانتها فى عالم التأليف مهما تقادم عليها العهد ، وستظل مرجع المؤلفين كلما عن لواحد منهم أن يضع لبنة فى صرح المؤلفات العربية .

ونحضرنى فى هذا المقام شهادة سجلها لهذه الكتب الدكتور حافظ عفيفى باشا فى كتابه على هامش السياسة عند كلامه عن تعليم اللغة العربية بمصر إذ قال بعد أن استعرض بالنقد ما ألف من كتب فى هذه المواد من الغبن بعد هذا أن نذكر ما قام به بعض أساتذة هذه اللغة فى ميدان الاصلاح والتأليف ، فلقد وضع الاستاذان على بك الجارم ومصطفى أمين كتابى « النحو الواضح » والبلاغة الواضحة ، وسلكا فيهما طريقة منطقية مشوقة هى إيراد الأمثلة الحديثة التى يجدر بالتلميذ أن يستعملها فى أحاديثه وشرح هـذه الأمثلة واستخلاص القاعدة أو القواعد منها وهى طريقة بيداجوجية حديثة »

أما مؤلفاته الأدبية فقد دلت على سعة باعه فى اللغة ، وتمكنه من ناحية البلاغة العربية ، فهو يحاكى فى أسلوبه الكتابى مذهب القدامى من كتاب القرن الرابع صلامة ألفاظ ، وإشراق ديباجة ، وحسن بيان وانسجام أسلوب .

وعندى أن هذه المميزات فى الأسلوب الكتابى يتفق فيها أربعة من أعلام الأدب فى العصر الحديث ، مع اختلاف يسير فى أداء كل منهم لطريقته وسلوكه مذهب أولئك هم كرام الكاتبين مصطفى لطفى المنفلوطى ، وأحمد حسن الزيات ، وعلى الجارم ومصطفى صادق الرافعى .

ولقد توفر الجارم على الكتابة الأدبية بعد تخلصه من أغلال الوظيفة وتخففه من أعبائها ، فأنتج فى تلك الفترة الوجيزة كتباً قيمة تفخر بها المكتبة العربية ، نذكر منها « شاعر ملك ، سيدة القصور ، فارس بنى حمدان ، خاتمة المطاف ، مرح الوليد ، غادة رشيد ، هاتف من الأندلس ؛ قصة العرب فى اسبانيا (١) »

وهذا عدا بحوثه القيمة فى « المجمع اللغوى » التى سجلتها أعداد مجلته ، وهى إن دلت على شىء فى الرجل ، فانما تدل على اتساع الأفق وسلامة الذوق ، ونضوج الفكر ، وسعة الاطلاع وعمق التفكير والرغبة فى التجديد

أردت فى هذه الكلمة أن أكشف بقدر ما أستطيع عن مجالات الجارم — رحمه الله — فى غير ميدان الشعر ، الذى عرف به ، ومن أجله لمع اسمه ، وذاع صيته وعرفه القاصى والدانى من أهل المشرق والمغرب .

فمن حق الجارم على مصر أن تذكره كلما ذكرت سدنة العربية وحراس هيكلها ، ومن حقه على المجمع اللغوى أن يذكره كلما عرض على بساط البحث مسألة من مسائل اللغة ، ومن حقه على دار العلوم أن تخلد اسمه إما بانشاء كرسى فيها للأدب يطلق عليه اسمه كما اقترح ذلك أحـــد زملائه من قبل ، وإما بانشاء قاعة للمحاضرات تسميها قاعة « الجارم » ، وإما بالاكتتاب فى مشروع نافع باسمه يوزع ريعه على الأوائل فى اللغة والأدب من طلابها

أما عن الجارم الشاعر فوعدنا به جولة أخرى على صفحات الرسالة الغراء .

عبد الجواد سليمان
المدرس بمدارس سوهاج

---

(١) مترجمة عن استانلى لين بول

اعلان

تعلن مصلحة الاموال المقررة فقد القسائم البيضاء ٧ « أموال مقررة » من رقم ٦٣٥٩٧٧ الى ٦٣٥٩٨٠ ومن رقم ٦٣٥٩٩٧ الى ٦٣٦٠٠٠ مجموعة رقم ٩

وقد اعتبرت المصلحة هـــذه القسائم لاغيـــة ، فكل من حاول استعمالهـــا يعرض نفسه للمحاكمة الجنائية

٤١٩٧